6- الصراع الحضاري في الرواية العربية

لقد أذكت الرّواية العربية الحديثة والمعاصرة النقد بترسانة مفاهيمية جديدة حاولت من خلالها توجيه السّرد نحو الاشتغال على المركزيات؛ وذلك باعتبار النصّ الروائي أداة لإنتاج الوعي بالذات وتحصين الهوية، في مقابل ما أنتجته الثقافة الغربية من خطابات جعلتها مركزا وما دونها هامشا، تابعا لها لا أكثر، وعليه اتجهت هذه الرّوايات صوب "التّحرّر من الفكرة الشّائعة التي ثبّتها الخطاب الاستعماري في الأدب والثّقافة بشكل عام، وهي أنّ كلّ الآداب الجديدة، والأفكار الحديثة إنّما هي غربية المنشأ"[1] وتحديدا أوروبية المصدر، وذلك تأسيسا على "فكرة الهوية الأوروبية باعتبارها هوية تتفوّق على جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية. هذا إلى جانب هيمنة الأفكار الأوروبية على الشرق، وهي التي تكرّر القول بالتفوّق الأوروبي على التخلف الشرقي"[2].

لقد أنشأ الخطاب الاستعماري، "صورة مركبة للشرق، وأصبحت ملائمة للدراسة في المعاهد العليا، وللعرض في المتاحف، ولإعادة الصوغ في وزارة المستعمرات، وللاستشهاد بها نظريا في الأطروحات الخاصة بعلم الإنسان/ الأنثروبولوجيا وعلم الأحياء/ البيولوجيا وعلم اللغة، ودراسات الأعراق والدراسات التاريخية عن الجنس البشري والكون ... هي صورة مركزية للشرق لم يطعن فيها أحد، وكان ذلك أولا وفق أفكار عامة تحدّد من هو الشرقي أو ما هو الشرقي، وبعد ذلك وفق منطق تفصيلي لا يخضع فحسب لحقائق الواقع الفعلي بل تمليه شتّى الرّغبات والأطماع وضروب القمع والاستثمار"[3] وهذا ما قاد إلى التسليم بمركزية الغربي، وتبرير الفعل الاستعماري، وتحويل الأمم الأخرى إلى أشياء، إلى شعوب يستعبدها، ومواد أولية ينهبها.

في خضم هذه التموقعات الثقافية، نصّبت الرواية العربية نفسها نصّا مقاوما لهذه المركزيات الغربية وما تنتجه من مقولات استعمارية تجعل من الغربيين "أرباب الخلق وسادة العالم وأن الهدى هداهم ... ولا يعقل تأسيسا على ذلك أن يشتغلوا بباطل أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل ... وقد أوكلوا إلى

---

[1]- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة – تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2013. ص: 07.

[2]- إدوارد سعيد، الاستشراق – المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ط1، 2006. ص: 51.

[3]- ينظر: المرجع نفسه. ص: 52.

أنفسهم مهمة تهذيب بقية أهل العالم المقيمين على الجهالة حتى اليوم، وهو ما يلزم الانتفاع بخيراتهم وطيبات أراضيهم"[1]، وبهذا الصدد، يكتب الروائي الجزائري "محمد العالي عرعار" في روايته "مالا تذروه الرياح"، متوسلا لسان ضابط فرنسي حين عقّب على خبر استقلال الجزائر "لم تبق لفرنسا عظمة منذ الآن ... إنّ العمل الذي قامت به اتجاه الجزائر، ليعدّ صبغة عار في جبينها ... وسيعاتبنا عليه أبناؤنا العتاب الشديد. فماذا يا ترى ستفعل الجيوش؟ ... **وأين تذهب خيراتنا الموجودة في الجزائر؟** لقد تنازلنا على كلّ شيء دون مقابل، وهذه عملية تجارية خاسرة"[2].

لقد حاولت الروايات العربية بعد الاستعمار إعادة كتابة التاريخ لتخليصه من المرويات الغربية انتصارا للهوية العربية/الإسلامية، وذلك بمساءلة ما اعتبر لردح من الزمن على أنّه الحقيقة، وقد نبشت لأجل ذلك في المرجعيات الثقافية التي سعت "إلى رسم صورة مشوّهة للشرق، كما قدمها فعلا الكثير من الآراء الاستشراقية العنصرية كتلك التي لإدوارد لين ورينان وغوبينو وبلفور وكرومر، وغيرهم ليكون الشرق الخاص المختلق أو الملفّق أو المصنوع أو على الأقل، المشوّه"[3]، وهي الصورة التي استغلت فيما بعد لتحقيق الأطماع الاستعمارية.

أراد الرّوائي العربي عبر نصوصه تقديم بدائل معرفية في شكل سردٍ مضاد يسعى إلى كشف التّعالي الغربي القائم على مقولة الأصلاني ومقولة السيّد المنزّه، ساعيا إلى توجيه الذهنيات المستعمَرة نحو التحرّر من المقولات الغربية المهمشة له، ليغدو بذلك النص استرتيجية "أساسية بالنسبة للذات في التّمثيل وصياغة هويتها عن طريق تأكيد اختلافها مع صور الآخر، اختلافاً يأخذ أنماطاً متعدّدة من العلاقات شكل ديالكتيك السيد والعبد، وهندسة المركز والهامش في الحكاية الكولونيالية، وشكل السلطة والتابع في حكاية السلطة وشكل الألفة (الأنا/المحلي) والغربية (الآخر/الأجنبي) في الحكاية الحضارية"[4].

---

[1]- ينظر: عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته في الرّواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس – تونس، ط1، 1988. ص: 62

[2]- محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر – الجزائر، ط2، 1982. ص: 189.

[3]- نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرّواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت– لبنان، ط1، 2013. ص: 35.

[4]- محمد بوعزة، سرديات ثقافية- من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014. ص: 16.

من ضمن الصور الروائية التي أعلنت من خلالها النصوص العربية وعيها بالتزييف والتلفيق الثقافي الغربي، ما نقله السارد في رواية واسيني الأعرج "كتاب الأمير" على فم امرأة جاءت تترجّى الأمير ليطلق سراح زوجها الأسير، وهو ما نفّذه لها الأمير بحسب النّص بعد وساطة من القسّ ديبوش: "وصلها أنّ العرب عندما يلقون القبض على ضحيّتهم لا يفكّرون في حلّ آخر إلّا قطع الرؤوس وبعثها إلى الخليفة ليأخذوا مقابلها قطعا ذهبية، وأحيانا يكتفون بقطع الآذان بدل الرؤوس للتخفيف من مهمة الإرسالية عندما يكون عدد المقتولين كبيرا. وقد وصلها أنّ بعضهم كان، في الكثير من الأوقات، لا يتوانى عن قتل ذويه من البيض، ممن تشبه آذانهم آذان الروميين في صغر حجمها ويملأ زوادته، ويذهب بها نحو الخليفة قائلا إنّه قتلهم في مكان ما من الأمكنة ليأخذ حقوق صيده كاملة"[1]، إنّها صورة شاذة تاريخيا، الهدف من ورائها تشويه الشرقي وثقافته، واكتساب شرعية المركز التي تجعل من صاحبها الكائن الوحيد الذي يستحق الحياة أمّا من هم دونه فهم "مظهر من البؤس والموت"[2] "إنهم دون البشر، أقرب إلى الحيوانات"[3] مثلما ذهب إلى ذلك "الحبيب السائح".

بالنظر في متون الروايات العربية ذات البعد الحضاري نستشف مجموعة من التّمظهرات السّردية التي اتخذت مسارا معاديا للغرب وخطاباته، ساعية إلى تحييد التاريخ عن قارئه بالصورة التي سوّقها المستعمر تعزيزا للموقع الحضاري العربي بما هو كيان مستقل له خصوصياته الثقافية، ومن هذه التمظهرات نذكر:

- الانتصار إلى الوطن وإعلان الانتماء إليه جغرافيا وثقافيا، مع الرفض المطلق لكلّ مظاهر الاستلاب.
- تمجيد التاريخ العربي المنتصر، تخليدا له، وإثباتا للذات التاريخية التي انتزعت حريتها ودافعت عن كينونتها منذ أن وجدت.
- اعتماد الدين مركزا سرديا بما أدّاه من دور في لمّ الشمل وتحديد الوجهة وضبط المسار للحفاظ على الهوية مظهرا وجوهرا، بالرغم من كلّ محاولات طمسه من طرف الآخر.

---

[1]- واسيني الأعرج، كتاب الأمير، - مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط3، 2013. ص: 42.

[2]- الحبيب السائح، كولونيل الزبربر، دار الساقي، بيروت – لبنان، ط1، 2015. ص: 68.

[3]- المصدر نفسه. ص: 143.

- تقزّيم الخطاب الغربي الاستعماري وكسر مقولاته الكبرى الاستعلائية بالنظر إليه أجزاء منفصلة، دولا مستعمرة خاضعة لقانون الائتلاف والاختلاف.
- إعادة كتابة تاريخ الأمة قبل زمن الاستعمار الغربي لربط حلقات الماضي بعضها ببعض ردا على الخطابات الاستعمارية المعاصرة الهادفة إلى تمزيق اللحمة الواحدة باستهداف جذور الهوية.
- الاهتمام باليومي والمحلّي، إفرادا للعربي/ المسلم، ودحضا لأيّ تماه في الآخر، وذلك لضمان بقاء الذات بخصوصياتها واختلافاتها الثقافية، بعيدا عن ثقافة المطابقة.
- استعادة صورة الغربي بصفته المضطهِد والمغتصب، بخاصة ما تعلّق منه بالقطاعين العسكري والسياسي تجريما له عمّا فعله، ونزعا منه للصفات الإنسانية التي يدّعيها زورا.
- إظهار وحشية الآخر وأطماعه وغروره وكذبه وافتراءاته وغيرها من الصور السلبية التي يمكن اعتبارها الردّ والعزاء في الوقت نفسه.
- ركّز الروائيون على الكثير من الظواهر الاجتماعية والثقافية السلبية التي كان للمستعمِر يد في ظهورها لتبيان مدى خطورة سيرورتها حتّى زمن الكتابة، ومن ذلك مثلا إشارتهم إلى عدم تحرير العقول من بقايا الاحتلال بعد تحرير الأبدان، وإلى تحرير المرأة وفقا للسياق الغربي.

لقد جاءت هذه الصور السردية المضادة للخطاب الاستعماري في الرواية العربية لتبنّي ثقافة الاختلاف التي تقتضيها الآداب ما بعد الكولونيالية، فهي تسعى إلى اختراق كلّ المجالات التي افترعها الخطاب الاستعماري وسوّق عبرها لادعاءاته، متجهة صوب الإنسانية، صوب الحقيقة، وصوب توطين الغيرية بما هي اشتراك في الاختلاف وتعايش في ظلّ التنوع، وبذلك فهي تؤمن بأنّ الآخر مثل الأنا منتج للثقافة، مساهم في البناء الحضاري، وأنّه يدرك اختلافه، وأن للجميع أهدافا طبيعية مشتركة.

استهدفت الرواية ما بعد الكولونيالية خطاب الآخر قصد تفكيكه وإعادة تركيبه من جديد محاولة نفي زعم المركزية الغربية، وذلك لإنتاج خطاب متعال مثلي أو لخلق النّدية الفكرية والثقافية والحضارية عبر الخطابات المنتَجة إيمانا من مبدعيها بأنّ "خروج بلدان من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة

ما بعد الاستعمار لم يكن ليعني نهاية هيمنته عليها، كما لم يكن لينسي أهالي تلك البلدان ذلك الاستعمار، خصوصا أن بعضهم بقي تحت هيمنته، ولكن بأشكال أخرى"[1].

لم تنتظر الرواية العربية الحديثة والمعاصرة الإنصاف من الآخر، وذلك لما يعكسه خطابه من ثقافة غربية متوارثة بكلّ ما تحتويه من مغالطات، لأنّه (الخطاب) من جهة، نتاج طبيعي لمن يسعى إلى مركزة نفسه داخل دائرة الحضارة والتقدم التي مِلؤها العاطفة والذاتية وهو ما لا يتأتى إلا بدفع الآخرين في الوقت نفسه إلى خارج حدود هذه الدائرة، ومن جهة أخرى، لأنّ الصورة قد تتماثل (لو) كانت الثنائية مقلوبة؛ أي (لو) كان الشرق هو المتقدّم والغرب هو المتخلّف، وعليه وجبت المقاومة الثقافية وفقا للسياقات التي وعتها الرواية العربية الحديثة والمعاصرة وذلك بتوسل الذات ندّا للآخر بعد استحقاق هوية غير مستلبة، تستحقّ أن يطلق عليها لفظ الأنا مقابل الآخر، الذي يكون مجبرا ساعتها أن يأخذ الثنائية على المنحى الموصوف بكلّ جدية.

[1]- نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة. ص: 111.